

العبقرية والحرماني

للأستاذ أنور المداوي

خطر لي أن أتعجب بعض العبقريات في أدب العالم لأرى إلى مدى يمكن أن ينتج العباقرة في ظلال الحرمان ... ولعل شيخاً من شيوخ الأدب هو الذي دفعني إلى أن أقف من هذا الموضوع موقف الباحث التأمل ، حين ذهب في مجلس جمع بيني وبينه إلى أن الحرمان يلهب فيلهم ، وأنه أكثر إثارة لمكامن الشعور في النفس الإنسانية مما عداه من أسباب الترف والنميمة ... ولم يستعرض الأستاذ يومئذ بعض النماذج الإنسانية في الأدب العالمي ليدل على مقدار ما في هذا الرأي من صواب ، ومدى ما فيه من حقيقة ؛ ذلك لأن الحديث كان حديثاً عابراً يأخذ بطرف

ولم يكن لهم ابن أبي نقمة ... واختلط عليهم الأمر ، وضاعت بهم أسباب الحيلة ، وكادت تقع الفرقة لولا أن كبيرهم (حبي بن أخطب) وقف بينهم قائلاً : (كلا ، بل أنا مرسل إلى محمد أنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا ... فليصنع ما بداله . وما علينا إلا أن نرمّ حصوننا ، وننقل الحجارة إليها ، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة ، وماؤنا لا ينقطع ، وإن بحصرنا محمد سنة كاملة) فاذعن القوم لمقاتته ، وانصرفوا لشؤونهم .

* * *

بلغت مقالة (ابن أخطب) رسول الله ، واقضت الأيام العشرة ، دون أن يخرجوا من ديارهم ، فاستعد المسلمون للحرب وساروا إلى فناء (بني النضير) يشقون أجواز الفضاء بالتكبير ، وقام اليهود وراء حصونهم ، ومعهم النبل والحجارة ، فحاصرهم رسول الله وقطع نخلةهم ، واعتزلهم (قريظة) وخذلمهم (ابن أبي) فأبوا من النصر بمد حصار دام خمسة عشر يوماً ، فاستلوا وأكل اليأس قلوبهم ، وملك العرب عليهم نفوسهم ، فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤمنهم على أموالهم وذرياتهم حتى يخرجوا من المدينة ، فصالحهم على أن يخرجوا منها ، ولكل ثلاثة منهم بغير يحملون عليه ما ساءوا من الطعام والشراب

من هنا وطرف من هناك ، ولا يكاد يستقر على ناحية بينها ليناقشها في صبر وأناة .

وانفض المجلس ، وخلوت إلى نفسي أقلب الرأي على وجوهه المختلفة . لقد كانت جذوره متأصلة في نفسي ولكنها كانت ترجع بين الشك واليقين .. أما اليقين فرجمه إلى أني كنت أومن إيماناً عميقاً بأن الحرمان كما قال محمدي ، أكثر إثارة لمكامن الشعور في النفس الإنسانية مما عداه من أسباب الترف والنميمة ، وكنت أرى أن الفنان الذي يعيش في رحاب الحرمان يعيش متوثب الشعور دائماً ، تلتهب أفكاره من وقدة العاطفة واشتعال الوجدان ولا كذلك الفنان الترف ، لأن الترف في أكثر حالاته أقرب إلى الدعة والخلول ، منه إلى سبرغور أو بلوغ أعماق .

هذا ما كنت أراه ، ولكن الشك الذي كان يلوح بين ثنايا اليقين سرجمه إلى أني حين رحمت استعرض بعض النماذج في أدب العالم ، وجدت أن بعض هذه النماذج يهز جانباً من جوانب

والثياب ، وأن يتركوا الدروع والسلاح ، فرضوا بهذا ... ولما أبقوا بالجللاء ، حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم ، فجملوا بخربونها بأيديهم (حتى إن الرجل منهم كان يهدم بيته عن نجاف بابه ، فيضمه على ظهر بغيره وينطلق) وصاروا ينقضون العمود والسقوف ، ويتزعون الخشب والأوتاد ، ولرملحوا عن المدينة ، وقد تمفروا بشبار الذلة ، وتفرضوا بدم الصغار ... ورجع رسول الله إلى المدينة ، يحمل ما تركوه من الدروع والأموال والسلاح ، وإذا يوحى الله بنزل عليه بهذه الآيات : (سبّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأنام الله من حيث لم يحسبوا ، ونفذ في قلوبهم الرعب ، يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ...) (١)

عمر هوردة الخطيب

فتى النجباء

دمشق - المزة

(١) سورة الحشر

ومع ذلك فقد كتب لآثارها كل بقاء وكل خلود ... وما أشبهها بالمدان الكريمة بصفو جوهرها تحت وهج النار في بوتقة الزمن !
نخرج من هذا كله بأن العبقريات معادن ... بعضها يتوهج في ظلال الترف والنميمة ، وبعضها يتأجج في رحاب الفاقة والحرمان وبعضها يخبو بريقه إذا ما انتقل من حال إلى حال ؛ فأدب مثل مكسيم جوركي كان يمانى أبشع ألوان البؤس الإنساني في أيام الحكم القيصري ، ولكنته كان في تلك الأيام الحافلة بالشقاء مثلاً رائماً للفنان اللهم .. ولقد بلغ من الفاقة حداً جعل الكاتب الإنجليزي ويلز يترك له كثيراً من ملابسه يوم كان يزور روسيا ليلقاه ويتحدث إليه ؛ لقد ترك ملابسه للفنان الذي أعجب به كما لم يجب بأحد سواه !

ولما قامت البلشفية على أنقاض الحكم القيصري خمدت الجذوة النوميحة بالهبب الفن ، لأن صاحبها قد انتقل من الجحيم إلى النعيم . ويقرر بعض النقاد المعاصرين وعلى رأسهم هيربرت ريد أن كتابات مكسيم جوركي في أيام يؤسه وشقائه ، لا يمكن أن ترق إليها كتاباته في أيام الترف وإقبال الحياة ... !

وهكذا كان حافظ إبراهيم في الأدب المصري ... كان شعره يتدفق من أعماق الحرمان قوياً ، صادقاً ، مبيراً ، نابضاً بالحياة ؛ فلما دفع به إلى دار السكّتب وذاق جيبه طعم الذهب ، واستمرات نفسه حياة النعيم ، نصب فيه معين الشعر وجف نبع الشهور .. ولما حاول بعض عشاق فنه أن ينطقوه كان قد أضحى !

إن العبقريات كما قلت معادن ... بعضها يتوهج في ظلال الترف والنميمة ، وبعضها يتأجج في رحاب الفاقة والحرمان ، وبعضها يخبو بريقه إذا ما انتقل من حال إلى حال ؛ وتلك أمور تقررها على هدى الدليل وفي ضوء المثال .

أنور العداوي

اطلب كتاب

تولستوى

اليقين الذي كان متأسلاً في نفسي ... إن تولستوى في الأدب الروسي مثلاً قد وصل إلى أرفع درجات المجد الأدبي وهو يعيش عيشة الأثرياء المترفين ، وإن بيرون في الأدب الإنجليزي قد أبدع أعظم آثاره الفنية وهو يتقلب في مجبوحة من العيش لا نهياً إلا لمن كان في مثل مراكزه الاجتماعي الرفيع ، وتستطيع أن تغنيف إليهما بلزك في الأدب الفرنسي ، فقد كان يحيا حياة مترفة أتت كاهله بالديون ، إلا أنه لم يستطع أن يخرج للناس أروع آثاره القصصية إلا في تلك الساعات التي كان يقبل فيها على متع الحياة وتقبل عليه .. وقل مثل ذلك عن جيته في الأدب الألماني ، وعن شوقي في الأدب المصري !

هذه بعض نماذج لعبقريات أغدقت عليها الحياة ففجر منها الإفداق بتأنيب البيان الشرق ، وعيون الحكمة الخالدة ، وأهوار الفن الرفيع .. وتعال نستعرض بعد ذلك نماذج أخرى لعبقريات لم تلق من الحياة إلا صنوفاً من الفاقة وألوان من الحرمان ، نرى أن الأثر الذي خلفته هنا لا يقل عن الأثر الذي خلفته هناك . ولا نعتي بالحرمان هنا ذلك الذي نمارف عليه الناس حين حصره في معناه الضيق ولم يتمدوا به نطاق الماديات ، كلا . وإنما تمدها إلى شتى معانيه في نطاق الماديات والمعنويات ... هناك حرمان يتمثل في ذلك الأعمى الذي لم نشأ له الحياة أن يرى ضوء النهار ، وهناك حرمان يتمثل في ذلك الأعمى الذي حلت القادير بينه وبين الإنصات لموسيقى الطبيعة ، وهناك حرمان يتمثل في ذلك المصدر الذي ينثف دماً ولا يعرف طعم المافية إلا من أفواه الناس ، وهناك حرمان يتمثل في ذلك المجهون الذي قدر له أن يشرف على الوجود بإحساس الفكر التائه والوعي القاهل ! نعم ، هناك ملتان يرسل أعذب أنغامه وأرق أغانيه وهو محروم من نعمة البصر ، وهناك بينه وبين يدفع إلى سمع الزمان بسحر موسيقاه وهو محروم من نعمة السمع ، وهناك كيتس يبيت إلى المصدر بدن. أشعاره وهو صاحب المصدر المحطم الذي لون قصائده بلون دماغه ، وهناك موباسان يخرج للدنيا من وراء العقل المقود ومضات من العبقرية المبدعة قل أن تجد لها مثيلاً عند فنان سواه ...

وكم في رحاب الحرمان النادى من عبقريات أخرى لقيت من ضروب البؤس والشقاء ما يرفض منه الصبر وتخور معه الزائم